

العنوان:	المالكية و فقهاؤها بافريقية في العهد الفاطمي
المصدر:	أعمال المؤتمر الدولي الأول: النخب والسلطة السياسية في العالم العربي الإسلامي من خلال كتب الطبقات
الناشر:	كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة
المؤلف الرئيسي:	جدلة، إبراهيم
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2012
مكان انعقاد المؤتمر:	تونس
رقم المؤتمر:	الأول
الهيئة المسؤولة:	جامعة منوبة
الصفحات:	169 - 183
رقم MD:	623255
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	فقهاء المالكية، كتب الطبقات، دولة الأغالبة، العصر الفاطمي، الشيعة، الدفاع عن المذهب المالكي
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/623255

المالكية وفقهاؤها بافريقية في العهد الفاطمي

إبراهيم جدلة
جامعة منوبة/تونس

تمهيد

تطرح قضية المالكية في العهد الفاطمي التساؤل عن مدى حضور هذا المذهب بافريقية في العهد الأغلبي وعن مدى انتشاره، لكي نتمكن بصفة موضوعية من تقييم موقعه أثناء العهد الفاطمي وتحديد أوجه مقاومته للشيعية إن وجدت هذه المقاومة سواء على المستوى المذهبي أو السياسي. وعمادنا في هذا البحث أقرب كتب الطبقات إلى تلك الفترة وهي أساساً: كتاب رياض النفوس للمالكي¹ والمدارك للقاضي عياض² وبصفة ثانوية بقية النصوص الإخبارية التالية لتلك المرحلة. والغرض من هذا البحث هو محاولة الإجابة عن عدة تساؤلات مازالت محلّ جدال أهمّها :

- هل كانت المحنة التي تعرض لها أنصار هذا المذهب أيام الفاطميين عامل تراجع أم دافع لأكثر تبلور وانتشار ؟
- ما هي فترة الاكتمال الفعلي للمدرسة المالكية القيروانية ؟

I- وضع المالكية قبل الحضور الفاطمي :

كما نعرف قامت الدولة الفاطمية على أنقاض الدولة الأغلبية اثر معركة الأريس 296هـ/909 م. وكانت المالكية في حدود نهاية القرن الثالث هجري قد بدأت في الانتشار لكنها لم تكن تمثل المذهب المهيمن ويظهر ذلك بوضوح من خلال ما جاء في تراجم بعض كبار الأعلام المنسوبين إلى المذهب المالكي. وتتعدد الإشارات التي تفهم ضمناً منها عدم تمسك هؤلاء الأعلام التام واللامشروط بمذهب مالك بل إنها توحى بأنهم كانوا يأخذون عن أكثر من مذهب. فعبد الله بن فروخ (ت 176هـ) حسب قول المالكي: "كان اعتماده على مالك لكنه يميل إلى طريقة أهل النظر والاستدلال"³ ويروى عن محمد بن سحنون أن المعتزلة تدّعي بأن ابن فروخ منهم⁴. وإن كان هذا الأمر شبه مستحيل بالنسبة لخبر اعتزاله فمن المؤكد في المقابل انه كانت له

¹ - أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي (ت حوالي 484هـ)، رياض النفوس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983.

² - القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي (ت سنة 544هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، وزارة الأوقاف المغرب، 1981-1983 (8 أجزاء)

³ - رياض النفوس، I، 177

⁴ - ن م، I، 186

روايات مباشرة عن أبي حنيفة منها كونه سأل عن امتناعه عن ولاية القضاء¹. ووصف البهلول بن راشد (ت 183هـ) بأن "الغالب عليه مذهب مالك وربما مال إلى قول الثوري"². ويبدو الأمر أكثر وضوحاً عند أسد بن الفرات (ت 213هـ) فالمشهور عنه أنه: "كان يلتزم من أقوال أهل المدينة وأهل العراق ما وفق الحد عنده، ويحق له ذلك لاستبحاره في العلوم وبحثه عنها وكثرة من لقي من العلماء والمحدثين..."³ وربما كان له تمسك بمذهب أبي حنيفة أكثر من مذهب مالك وقد ذكر أبو جعفر القصري أن أسداً كان "إمام العراقيين بالقيروان كافة... ودينه ومذهبه هو السنة"⁴. ولا يشك إثنان في أن رمز المالكية بإفريقية في ذلك العهد هو سحنون بن سعيد (ت 240هـ) حتى اعتبر البعض أنه هو الذي "قدم" بالمذهب حسب رواية محمد بن حارث: "ثم قدم سحنون بذلك المذهب، واجتمع له مع ذلك فضل الدين والعقل والورع والعفاف والانقباض..."⁵ ورغم ذلك فقد وردت رواية تشكك في منزلته جاءت على لسان أشهب حين سأل عن سحنون "فقال: مالي لا أسمع له ذكراً في بلدكم؟" فقيل له: "إنه رجل قليل ذات اليد، وإنما لزومه البداية أكثر أيامه"⁶. ولعل ما أعطى لسحنون صورة المؤسس الفعلي للمدرسة المالكية القيروانية ما قيل عنه من تمسكه الشديد بمذهب مالك وتعبه له فهذا عيسى بن مسكين يقول: "لم يكن بين مالك وسحنون أفقه من سحنون"⁷ ويروي سليمان بن سالم أن سحنون أخذ: "بمذهب أهل المدينة في كل شيء حتى في العيش..."⁸. لكن هل أسس سحنون فعلاً هذه المدرسة؟ يذكر لنا أبو العرب رواية مفادها أن "الذين يحضرون مجلس سحنون من العباد أكثر ممن يحضره من طلبة العلم"⁹. ونفهم ضمناً من ذلك أن الذين يمثلون الطبقة الموالية لطبقة سحنون ستغلب عليهم صفة العابد لا صفة الفقيه وأشهر هؤلاء دون شك يحيى بن عمر (ت 289هـ) الذي قال عنه أبو بكر اللبّاد "كان من أهل الصيام والقيام وكان مجاب الدعوة، وكانت له براهين"¹⁰. هذا بخصوص النخبة العلمية والدينية أما بقية مكونات المجتمع فنحن لا نستطيع الجزم بأن المالكية كانت مذهبهم فرجال الدولة من جند وغيرهم كانوا معتزلة وأثناء وفاة سحنون بن سعيد "استعفى رجال الدولة ابن الأغلب من الصلاة عليه، وقالوا لأمرهم قد علمت ما بيننا وبينه، وأنه يكفرنا ونكفره - لأن أكثرهم

¹ - ن م ، I ، 184

² - ن م ، I ، 201

³ - ن م ، I ، 263

⁴ - ن م ، I ، 264

⁵ - المدارك ، IV ، 51

⁶ - رياض النفوس ، I ، 370

⁷ - المدارك ، IV ، 52

⁸ - ن م ، IV ، 53

⁹ - رياض النفوس ، I ، 443 ، المدارك ، IV ، 73

¹⁰ - المدارك ، IV ، 358

كانوا معتزلة - وإنما خرجنا طاعة لك فان صلينا عليه رأى الناس أننا رضيينا حاله¹.

ولم يكن الإعتزال منتشرًا في جهاز الدولة فقط بل أيضا لدى العامة وبخصوص أحداث سنة 234 هـ يذكر لنا ابن عذاري أنه : " فيها مات عبد الله بن أبي الجواد في سجن سحنون.. فشنع الناس على سحنون أنه قتله وكان يقول بخلق القرآن"². وربما كان ذلك يعني ضمنا تعاطف العامة مع المعتزلة وقد تواصل حضور الاعتزال إلى أواخر القرن الرابع للهجرة حيث سجلت المصادر وفاة أبي طالب " شيخ المعتزلة ولسانهم..³ لكن لا شك في أن هذا المذهب كان أقل انتشارا وحضورا من المالكية والحنفية بافريقية في تلك الفترة حيث أن مختلف هذه المذاهب كانت أساسا من اهتمامات النخبة القيروانية لا أكثر.

ويقول العلامة حسن حسني عبد الوهاب " ويمكن أن نعد أسد ابن الفرات أول مؤسس للمدرسة الفقهية القيروانية بيد أن هذه المدرسة لم تكن تنسب إلى مذهب معين بل كانت تروي أقوال كبار المجتهدين مع إيضاح ما بينها من فروق وإنما كان ذلك لان المذاهب السنية لم تكن قد تعيّنت بعد، واستقل كل منها بنفسه"⁴.

وحسب ما أورده بعض المصادر كان المذهب الحنفي يوازي المذهب المالكي حضورا وانتشارا فائتاء حديثه عن بلاد المغرب والأندلس قال المقدسي : "وأما المذاهب فعلى ثلاثة أقسام أما في الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك فان ظهورا على حنفي أو شافعي نفوه وان عثروا على معتزلي أو شيعي ونحوهما ربما قتلوه، وسائر المغرب إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي رحه إنما هو أبو حنيفة ومالك رحهما الله... وما رأيت فريقين أحسن اتفاقا وأقل تعصبا منهم وسمعتهم يحكون عن قدمائهم في ذلك حكايات عجيبة حتى قالوا انه كان الحاكم سنة حنفي وسنة مالكي..."⁵ وبصفة عامة يمكن القول انه حتى نهاية القرن الثالث هجري وبداية القرن الرابع هجري أي مع بداية انتصاب الدولة الفاطمية لا يمكن الجزم بهيمنة واضحة للمذهب المالكي ولا بتشكيل مدرسة قيروانية واضحة المعالم. وهو ما يجعلنا نتساءل عن وضع فقهاء المالكية في العهد الفاطمي، كيف تطوّر وكيف تمكّن من تجاوز الصراع المذهبي ضد الشيعة.

1 - ن م، IV، 85

2 - ابن عذاري، البيان المغرب، بيروت 1980، I، 110.

3 - ابن عذاري، I، 256

4 - حسن حسني عبد الوهاب، الورقات، تونس 1972، ج III، 43

5 - المقدسي (شمس الدين ابو عبد الله بن محمد)، كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بريل، ليدن ، 1906 ، 236-237

II/- السلطنة الفاطمية والمقاومة القبروانية

يمكن اعتبار الدولة الفاطمية في الأصل مجرد إمارة استيلاء تحولت إلى خلافة موازية للخلافة الشرعية الموجودة ببغداد. وبحكم منطقتها العقائدية باعتبار مؤسسيها من الشيعة الإسماعيلية فإن السلطة الفاطمية كانت عبارة عن جسم غريب (النصوص تعرفهم بالمشاركة) مزروع في المجتمع المحلي وقد عمق هذه الوضعية تصرفهم في أغلب الأحيان كنحلة (secte) تعمل على حماية مصالحها بالتنظيم والالتزام أكثر من العمل على نشر مذهبها. دامت هذه الدولة ستون سنة لا أكثر. ولم يكن البقاء في افريقية من مشاريع الفاطميين. بل هدفهم الأول هو الرحيل إلى الشرق. وقد عبر المعز عن ذلك بصفة واضحة عندما قال للقاضي النعمان: " وقد ابتلانا الله برعي الحمير الجهال فإنا لم نزل نتلطف في هدايتهم ومسيرة أحوالهم إلى أن يختم الله لنا بالحسنى والخروج من بين أظهرهم على أحمد حال..."¹

هل قام الفاطميون في هذه المدة الوجيزة من حضورهم بافريقية بحمل "الناس على القول بأرائهم قهرا"² وهل حاول فعلا ملوك بني عبيد " القضاء على مذهب أهل السنة ...، وقاسى علماء القيروان من جرّاء ذلك ألوان الاضطهاد والمناوأة، فأخفت صوتههم ومنع نشر تعاليمهم مدة ستين عاما أو أكثر...."³ في الحقيقة لا شيء يثبت في المصادر الإسماعيلية والمصادر السنية أن الفاطميين قد وجهوا جهودهم لمحاربة السنة أو منع نشر تعاليمهم. وعند مراجعتنا لما جاء في كتابات القاضي النعمان المعاصرة للأحداث نلاحظ أن الدولة الفاطمية، ربّما بحكم أن قيادتها كانت مجرد أقلية عربية اعتمدت على مجموعة قبائل كتامة المحلية. اتجهت منذ البداية نحو سياسة إنتلاف القلوب. وحسب ما ورد في " افتتاح الدعوة " كان وجوه من بقي من بني الأغلب وأكابرهم: " يدخلون فيمن يدخل إليه (المهدي) إذا جلس فيقرّبهم، ويدنيههم، ويؤنسهم، ويحسن إليهم واستعمل جماعة منهم. وأخرج في البعوث والعساكر من كان يصلح لذلك..⁴ وإن كان هذا موقفهم بالنسبة للنخبة السياسية والعسكرية فإنّه لم يكن يختلف عن ذلك بخصوص بقية مكونات المجتمع الذين كثيرا ما تصفهم المصادر بكلمة "عامّة" بما في ذلك الفقهاء. وكان خلفاء الفاطميين وخاصة المعزّ منهم يحاولون مناظرتهم واستمالتهم بالحسنى أو بالحجة كما جاء على لسان المعزّ: " ولقد فاوضت فلانا - وذكر رجلا من علماء العامة (بمعنى أهل السنة) عندهم وأكابرهم. وبسطته في القول وما زلت به إلى أن أقرّ بحقنا... قلت : أنت رجل ترأست في العامة وذكرت بالعلم فيهم... فإذا أنت فارقتهم وصرت إلينا نبذوك ... "⁵

1 - القاضي النعمان ، المجالس والمسائرات، تونس 1978، 396-397

2 - حسن حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي، مكتبة المنار، تونس 1986، 76

3 - الورقات، III، 51

4 - القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، تونس 1975، 305

5 - المجالس والمسائرات، 365

ومما ورد في هذه المصادر يجعلنا نميل إلى القول بوجود نوع من الحرية المذهبية حيث تواصلت تقاليد المناظرات بين المعتزلة وأهل السنة، كما أن كلام المعز عن " التلطّف في هدايتهم (أهل السنة)¹ ومسايرة أحوالهم "² يؤكد هذا التوجّه الذي كان موجودا منذ عهد المنصور الذي أمر القاضي النعمان بمحاولة مجادلة أهل السنة وإقناعهم بقوله : " يا نعمان استخرج من كتاب الله ما رفضته العامة وأنكرته..."³

هذا ما ورد في المصادر الإسماعيلية، فهل نجد في المصادر السنية ما ينفي ذلك؟ في الحقيقة لو نستثني حادثة قتل عروس المؤذن بمسجد ابن عياش الفقيه سنة 307 هـ حين شهد عليه قوم من المشاركة بأنه أدن ولم يقل: " حيّ على خير العمل".⁴ فإننا لا نعثر على حالات واضحة للاضطهاد المذهبي والتقتيل أو التصفية الجسدية لأسباب عقائدية أو حتى التضييقات حول أشكال العبادة. بالعكس نجد في الكثير من الحالات إشارات مختلفة تدل على التعامل بين الجهاز الفاطمي والنخبة السنية. فهذا خلف بن معمر بن منصور الذي تنسبه المصادر إلى الفقهاء العراقيين (أي حنفي) و"كان يروي عن أبيه، عن أسد بن الفرات... كان قد تشرّق أول دخول الشيعة افریقیة..."⁵ وهذا أبو الفضل محمد بن عبد السلام بن إسماعيل بن عبد السلام كلف بتولي جباية طرابلس وتونس "يلج مع القوم (الشيعة) ويبقى معهم..."⁶ وتولى لهم القضاء محمد بن محفوظ القمودي الذي ذكرت المصادر بأنه كان "ضعيف الرأي جانر الحكم"⁷. كما ولي لهم على دار السكة أبو بكر القمودي⁸ المتكلم والملقب بالفيلسوف وقد كان من أنصار سعيد بن الحذاد. هذه الأمثلة المتعددة لا تدل بأن الأوضاع كانت تتميز دائما بالهدوء وبالتعايش السلمي بين الجهاز الفاطمي والمجتمع القيرواني لان التناقضات وان لم تكن حادة على مستوى التباينات المذهبية فإنها أصبحت عميقة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي وأخيرا السياسي.

وقد انطلقت الأزمة الفعلية لا بسقوط القيروان في أيدي الفاطميين الشيعة بل بتأسيس عاصمة جديدة نقيضة لها : المهديّة التي استفادت من اقتصادها الخاص (فهي المركز الجديد للثروات) ومن خلق مجتمعها الخاص من الانفراد بعلمها وعلمائها (من الشيعة طيعا) مما سمح ب بروز عوامل تنافس غير متكافئ جعل العلاقات تتسم بالتوتر بين السلطة الفاطمية

¹ - ن م ، 380 يذكر القاضي النعمان : " وذكرته له (أي المعز) في هذا المجلس قول بعض من تسمّى بالعدل من العامة في الردّ على بعض المجبرة".

² - ن م ، 395-396

³ - ن م ، 135

⁴ - البيان المغرب، I، 182-183

⁵ - ن م ، I، 173

⁶ - ن م ، I، 180

⁷ - ن م ، I، 182

⁸ - ن م ، I، 151

والمجتمع القيرواني. ولم يكن هذا المجتمع هو الذي أعلن الحرب على الفاطميين بل: أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الخارجي (التُّكاري) واكتفى تجار القيروان وعبادها وفقهاؤها بمساندته وقبول قيادته رافعين شعار "نصر من الله وفتح قريب على يدي الشيخ أبي يزيد..."¹ كانت هذه المحاولة الأولى والأخيرة للقيروانيين لمقاومة القمع السياسي والضغط الجبائي بالقوة. أثناء هذه المحاولة يقول ابن عذاري " قُتل من صلحاء القيروان وفقهائها من أراد الله بسعادته وشهادته"² ورواية الرقيق هذه لم تذكر كم قُتل ؟ كيف تم ذلك ؟ ونجد بعض الإضافات الهامة عند المالكي أثناء حديثه عن أحداث سنة 333 هـ/944م وفاة أبي الفضل عباس بن عيسى بن عباس الممسي الذي "استشهد معه خمسة وثمانون رجلا كلهم فاضل خيّر في حرب بني عبيد - لعنهم الله- مع أبي يزيد..."³ أمّا أثناء حديثه عن استشهاد ربيع القطان فهو يضيف " أنّ الذين ماتوا في دار البحر بالمهدية من حين دخل عبيد الله...أربعة آلاف رجل في العذاب، ما بين عالم وعابد ورجل صالح..."⁴ ويمكن تلخيص هذه الوضعية العدائية بين المجموعتين بما قاله أحد الشعراء القيروانيين في هجاء بني عبيد :

لو قيل للروم أنتم مثلهم لبكوا أو اليهود لسدّوا صمخ أسماع
ولو عزينا إلى إبليس ما مكر وا لقال إبليس ما هذا من أطباعي⁵

III- فقهاء المالكية في العهد الفاطمي

رأينا أعلاه كيف أن القيروان قد فقدت السلطة السياسية وكانت تعوزها القوة العسكرية وهو ما جعلها تحاول المقاومة فكريا ومذهبيّا. ولم تحاول القيروان الدفاع عن الأغلبية المهزومين ولا عن خلافة العباسيين البعيدة بل كان محور دفاعها : المالكية التي أيضا كما رأينا أعلاه لم تتبلور بعد كمذهب رسمي ولا عام للبلاد. وكان زعماء هذه المقاومة الفقهاء أو من نعتبرهم فقهاء : فمن هم هؤلاء الفقهاء ؟ ما هي أصولهم الجغرافية والاجتماعية ؟ وما هي مؤهلاتهم العلمية ؟

من الناحية المنهجية قمت انطلاقا ممّا أوردته القاضي عياض ضمن الطبقات: الثالثة والرابعة والخامسة (أي المعاصرة للفاطميين) بحصر 90

¹ - ن م ، I ، 217

² - ن م ، I ، 218

³ - رياض النفوس ، II ، 292

⁴ - ن م ، II ، 345

⁵ - ن م ، II ، 346

ففيها تتألف ترجماتهم ضمن هذه الطبقات كما وردت في المدارك¹ وبالتحديد في الجزئين الخامس والسادس. وهي كما يلي ملخصة ضمن الجدول التالي :

الطبقة الثالثة						
رقم الترجمة	الاسم	اللقب/الكنية/النسبة	تاريخ الوفاة	التعريف العلمي	الملاحظات	ص
1	عبد الله بن محمد بن سويد	الرابعي	308هـ/920م	صالحا، ثقة، فقيها		106V
2	سعيد	ابن حكيم	308هـ/920م	الغالب عليه العبادة	أصله يهودي	106V
3	محمد بن سعد	أبو الوليد القيرواني		ذا علم وعناية وبصر		107V
4	عبد الله بن محمد	أبو القاسم الزواوي	304هـ/916م	كان ثقة		107V
5	محمد بن محمد بن سحنون	أبو سعيد	306هـ/918م	كان منسوباً للعلم	غلبت عليه العبادة كان يرى الخضر	107V
6	ميمون بن عمرو	أبو عمرو بن المفلح	310هـ/922م	له دين وفضل	تولى القضاء	110V
7	محمد بن بطام	أبو عبد الله السوسي	313هـ/925م	ثقة كثير الروايات		111V
8	أحمد بن أحمد بن زياد	الفارسي	319هـ/931م	كان فقيها	مذهبه النظر	112V
9	نفيس (عبد رومي)	الغرابلي، أبو الغصن، السوسي	309هـ/921م	فقيه، ثقة	مولي لامرأة	114V
10	إبراهيم بن محمد	أبو إسحاق بن البرذون	297هـ	فقيه، عالم	قتله الشيعي	117V
11	ابن هذيل	أبو بكر	297هـ	من الورعين	قتله الشيعي	121V

¹ - يعتبر المدارك من أهم كتب الطبقات على الإطلاق وحسب رأي الأستاذ محمد الطالبي : "إن فائدة المدارك ليس فقط كونها متأكدة بل إنها تتجاوز كثيرا كل الكتب الشبيهة التي ظهرت في الغرب الإسلامي، وهذا يرجع إلى عدة أسباب منها المصادر المستعملة ... وأيضاً طريقة استغلالها.."

123V		من الحفاظ		بن عبد الرحيم	محمد بن علي	12
123V		فقيه	310هـ / 922م	أبو عبد الله	محمد بن قعنب	13
124V		فقيه، زاهد		أبو عبد الله	حمود بن سهلون	14
124V	ألف كتاب الأشربة	فقيه	305هـ / 917م	أبو عبد الله، القفصي	مالك بن عيسى بن نصر	15
125V			310هـ / 922م	أبو جعفر، السهمي	أحمد بن يحيى بن خالد	16
125V	يسكن سوسة	كان صالحا ثقة	290 هـ / 902م	أشبيلي	عمر بن يوسف بن عبدوس	17
126V			309هـ / 921م	بن مهران	محمد بن أحمد بن يحيى	18
126V		الجدل والمناظرة	310هـ / 922م	شفون، الرقادي	محمد بن فتح	19
126V		فقيهه	307هـ / 919م		سالم بن حماس	20
128V		يغلب عليه النسك والورع	309هـ / 921م	أبو جعفر	حمود بن حماس	21
129V		يحفظ المسائل يناظر فيها	307هـ / 919م	أبو عبد الله الزناتي	محمد بن محبوب	22
130V	مولى	له عناية بالعلم	308هـ / 920م	أبو القاسم	حسين بن مفرج	23
131V	مولى	من أهل الفتوى	306هـ / 918م	الشورى، أبو حبيب	نصر بن فتح	24
131V	من بنزرت	من أهل الصيام والقيام	310هـ / 922م	العنمي، أبو محمد	عبد الله بن محمد	25
134V	مرابط بالمنند تير	من أهل العبادة	325هـ / 936م	أبو عثمان، الخولاني	سعدون بن أحمد	26

136V		كان ثقة		أبو جعفر، المغرياني، القرشي	أحمد بن محمد	27
137V	قبطي	غلبت عليه الرواية	316هـ/ 928م	بن أبي زاهر	محمد بن أحمد	28
137V			300هـ/ 912م	أبو محمد	يونس بن محمد	29
138V	مولي	كان ثقة	322هـ/ 933م	أبو جعفر القصري	أحمد بن محمد	30
139V		معدود في الفقهاء		القطان	محمد بن سليمان	31
140V	هاجر إلى قرطبة	من أهل العلم والحفظ	338هـ/ 949م	اليحصي	محمد بن هشام بن الليث	32
141V		قليل الرواية	307 919م	أبو محمد، الرعي	عبد الله بن محمد	33
141V		متعبد، صالح	295هـ/ 907م	أبو عبد الله، الابزاري	محمد بن مسرور	34
143V		يحسن الرد على الملحد	349هـ/ 960م	أبو القاسم، ابن المشاط	جعفر بن مسرور	35
	مولي	فقيه	326هـ/ 937م	أبو البشر	مطر بن يسار	36
143V	مولي	صالح فاضل	325هـ/ 936م	أبو الفضل	يوسف بن مسرور	37
147V	سكن الرباط	زاهد، عابد	312هـ/ 932م	الكلبي	حمدون بن مجاهد	38
الطبقة الرابعة						
286V	جده كان حانكا وهو مول ي	فقيه	333هـ/ 944م	أبو بكر، ابن اللباد	محمد بن محمد	39
296V		من أهل العبادة والصيام	319هـ/ 931م	أبو سعيد، الغساني	لقمان بن يوسف	40
297V		فقيه، عابد	333هـ/ 944م	أبو الفضل، الممسي	العباس بن عيسى	41
310V	كان يجتمع مع الخضر	فقيه، عابد	333هـ/ 944م	أبو سليمان، القطان	ربيع بن سليمان	42

321V		يتكلم في المسائل	327هـ/ 938م	أبو بكر الكتاني	محمد بن عباس	43
321V		فقيه	325/ 936	النحاس	محمد بن عباس	44
322V		الدرس والحفظ والمناظرة	329هـ/ 940م	أبو عبد الله، النجار	محمد بن مسروق	45
323V		من أهل العلم والفقه	324هـ/ 935م	أبو الحسن العتال	عبد الله بن محمد	46
323V		عالم بالسنن والرجال	333هـ/ 944م	أبو العرب، التميمي	محمد بن أحمد	47
326V	من الأربس	صالح متعبد	324هـ/ 935م	أبو جعفر، المتعبد	أحمد بن إبراهيم	48
327V	من الأربس	من أهل العلم بالجدل		أبو قحطان، الأربسي	قائد بن سعدون	49
328V	من قبط تونس	من أهل العلم بالجدل	329هـ/ 940م	أبو جعفر التمار	أحمد بن موسى	50
329V		يميل إلى النظر		أبو فقة	إبراهيم بن أبي حفص	51
329V	مولى أصله من الأندلس	ترك العلم، اشتغل بالتجر	337هـ/ 948م	أبو عبد الله، الأنصاري	محمد بن عبد الله	52
330V		عاقل حصيف	320هـ/ 932	أبو محمد، ابن الحداد	عبد الله بن سعيد	53
330V	مولى	الجمع والرواية	346هـ/ 957م	ابن الحجام	عبد الله بن أبي هاشم	54
334V	مولى	فقيه، عابد	339هـ/ 950	أبو نصر	حبيب بن الربيع	55
336V	مولى	غني بالمسائل		أبو نصر	حبيب بن نصر	56
336V	مولى	يتكلم في الفقه		أبو إبراهيم	إسحاق بن مسلم	57
336V	مولى	عالم، فقيه	329هـ/ 940م	أبو عبد الله، دعدع	محمد بن العبّاس	58
337V		له سماع	333هـ/ 944م	المرفشاني	محمد بن عبد الله	59

الطبقة الخامسة						
60	محمد بن غليون	الصنهاجي الوقاد	329هـ/ 940م	من أهل الفقه والعلم		9،VI
61	عبد الله بن احمد	أبو العباس، الابياتي	352هـ/ 963م	عالم افرقية		10VI
62	تميم بن خيران	أبو محمد، السرتي	346هـ/ 957م	فقيه إخباري		18VI
63	ابن مسلم بن يزيد	أبو يوسف الحضرمي		من أهل العلم والعبادة		19VI
64	ليث بن محمد	أبو الحارث		منقطع للعبادة		20VI
65	مطر بن يسار	أبو البشر	326هـ/ 937م	فقيه	مولى	20VI
66	محمد بن احمد	أبو البشر، السويسي	331هـ/ 942م	كان له سماع من الخاصين		20VI
67	محمد بن عبد الرحيم	أبو عبد الله ابن عبد ربه	346هـ/ 957م	لازم الرباط		21VI
68	علاء بن محمد	أبو سهل	347هـ/ 958م	صالح، فقيه	سكن بونة	VI، 22
69	محمد بن صامت	أبو عبد الله	332هـ/ 943م	له عناية بالحديث	من تونس	22VI
70	نصر	أبو حبيب، الرومي	332هـ/ 943م	كان أميا لا يقرأ ولا يكتب	مولى من تونس	23VI
71	عبد الله بن سعيد	أبو محمد، اللاجام	331هـ/ 942م	كان رجلا صالحا		24VI
72	يوسف بن عبد الله	التميمي، الققصي	332هـ/ 943م	من أعلم أهل زمانه وأفقههم		25VI
73	عبد الرحمان بن تمام	أبو القاسم، القطان	332هـ/ 943م	من أهل الفضل والورع		25VI
74	محمد بن عمرو	أبو عبد الله، الملاح	335هـ/ 946م	كان صالحا، فقيها	لم يكن يحسن التقيد	25VI
75	محمد بن إبراهيم	ابن أبي صبيح	337هـ/ 945م	كان رجلا فاضلا	تولى القضاء	26VI

76	موسى بن احمد	أبو عبد الله الغرابلي السويسي	333هـ / 944م	كان رجلاً صالحاً، فقيهاً	VI، 26
77	أحمد بن نزار	أبو ميسرة	337هـ / 948م	من الفقهاء العباد	26VI
78	عبد الله بن إسماعيل	أبو محمد، البرقي	317هـ / 928م	من أهل الفقه والأدب	33VI
79	تميم بن أحمد	أبو علي، ابن الشامة	357هـ / 967م	حامل علم كثير	33VI
80	عتيق بن أبي صبيح	أبو بكر الجزيري		فقيه	34VI
81	الحسن بن نصر	أبو علي، السويسي	341هـ / 952م	شيخ صالح ورع	34VI
82	حسن بن محمد	أبو الحسن، الكاتشي	347هـ / 958م	صالح مشهور بالعلم متعبّد	40، VI
83	عمر بن عبد الله	أبو حفص، ابن الإمام الصديقي	350هـ / 961م	لزم العبادة والتبتل	50VI
84	سحنون بن أحمد	ابن ملول، التتوخي	343هـ / 954م	صالح، ورع	52VI
85	عبد الله بن حمود	السلمي، ابن الحقنة	357هـ / 967م	صالح، فاضل	52VI
86	إبراهيم بن أحمد	أبو إسحاق، السبائي	356هـ / 966م	من أولياء الله	VI، 54
87	محمد بن منصور	أبو عبد الله، العسال	343هـ / 933م	فقيه	76VI
88	عمر بن محمد	أبو حفص، العسال	343هـ / 954م		77VI
89	أحمد بن أبي رزين	الخيّاط	321هـ / 933م	فقيه	80VI
90	قمود بن مسلم	القابسي		يروي عن يحيى بن عمر	80VI

بعد قراءة هذه الجداول نلاحظ أولاً المكانة المركزية للقيروان، العاصمة التاريخية لأفريقية وامتدادها الطبيعي: جهة الساحل (سوسة المنستير). وبينما كان العنصر العربي يغلب على الفقهاء في العهد الأغلبي، نلاحظ أنه بالنسبة للمجموعة المدروسة لا نجد سوى 17 فقط من 90 لهم نسب عربي واضح مقابل بروز الفئات الاجتماعية والعرقية الأخرى حيث كان عدد الموالي 20 منهم 3 من الرّوم (الأرقام: 9-58-70) و3 من الأقباط (الأرقام: 28-50-65) وفارسي (رقم 8) وواحد أبوه من مسالمة اليهود (رقم 2). بصفة عامة نلاحظ أن العنصر العربي بدأ يفقد دوره السياسي والاجتماعي وحتى العلمي. ويرجع ذلك أولاً إلى كون السلطة الجديدة كانت عربية وقد تمكنت من انتلاف ولاء العديد من الأسر العربية وثانياً إلى كون المقاومة المسلحة الأولى التي قادها أبو يزيد ضد الفاطميين تسببت في القضاء على الكثير من هؤلاء. وتحمل مصادرها المسؤولية المباشرة لأبي يزيد الذي لمّا رأى الظفر على الفاطميين "ولم يشك في غلبته أظهر ما أكّته من الخارجيّة، فقال لأصحابه : إذا لقيتم القوم، فانتكشفوا عن علماء القيروان حتى يتمكن أعداؤهم منهم... ففعلوا ذلك فقتل منهم من أراد الله ..."¹

وهنا نصل إلى طبيعة هذه المقاومة (التي كما أسلفنا اتخذت الشكل العنيف أو المسلّح مرّة واحدة انتهت بمأساة كبيرة) إنها لم تكن مقاومة قبلية ولا عرقية بل أساساً عقائدية – مذهبية قادتها شريحة اجتماعية لم تكن قد استفادت سابقاً من الأغلبية ولا تنتظر شيئاً من الفاطميين. هذه المقاومة المذهبية تخفي أيضاً مقاومة اجتماعية واقتصادية. وفي ترجمة ربيع القطان (رقم 42) تورد المصادر بأن السلطان (أي الخليفة الفاطمي) رمى "على القطانين قطناً كان عنده وحسبه عليهم بدينارين القنطار وكان يسوي ديناراً ونصفاً .."² يمكن القول أن الفئات المتضررة في المجتمع هي التي قاومت الفاطميين وهذه الفئات نجد لها صدى من خلال التراجم التي نحن بصدد درسها فإن اختفت شيئاً فشيئاً النسب القبلية وخاصة العربية منها، نلاحظ ظهور كني أكثر جديدة أو نسب مهنية أساساً تعكس الانتماء إلى وسط اجتماعي متواضع أحياناً وتوحي بظهور أنساب مغمورة ليس لها اتصال بالفئات المتنقذة اجتماعياً أو أصحاب الجاه.

نجد 17 كنية لها تعبيرة مهنية وردت في هذه التراجم ونذكر منها :

- القطان (رقم 31-42)
- الأيزاري (رقم 34-35)
- الكتاني (رقم 43)
- النخاس (رقم 44)
- الغرابلي (رقم 76)

¹ - المدارك، V، 306

² - رياض النفوس، II، 328-329، المدارك، V، 316

- الخياط (رقم 89)
- العسّال (رقم 46-87-88)
- التّمّار (رقم 50)
- الحدّاد (رقم 53)
- الحجام (رقم 54)
- الوقاد (رقم 60)
- اللجام (رقم 71)
- الملاح (رقم 74)

نحن هنا في وسط حضري خالص تراجعت فيه الانتماءات القبلية والمجموعات العرقية. فمن جهة يظهر "الفرد" المنعزل وتقبله قوّة الدولة بمضامينها العقائدية والاقتصادية والاجتماعية. انه فرد ضعيف لكّنه سيحاول البحث عن مصادر قوّة جديدة لتعويض محدوديته. وقد تمّ ذلك أساسا عبر وسيلتين الانطواء واللامعقول. نلاحظ بالنسبة للتسعين حالة المدروسة تراجع نعت "فقيه" وظهرت كلمات أخرى لتعريف المترجم لهم وهي: عابد - تقّي - فاضل - زاهد - يطغى عليه الخوف - لا يغادر الرباط - كان يتكلّم - يعرف الأجوبة - من أهل المعرفة - يصوم ويصلي - يقرأ القرآن ... إلى حدّ أن البعض ممّن ترجم لهم كان لا يعرف القراءة ولا الكتابة (ترجمة رقم 70) وحتى الفقهاء المشهورين منهم لم يتركوا لنا أثارا تذكر (إذا ما استثنينا كتاب السماسرة للاببياني وأحكام السوق ليحيى بن عمر وكتابي الطبقات والمحن لأبي العرب). وكان الانزواء طاغيا على الكثير من المترجم لهم معبّرا عن سلوك اجتماعي يتّجه نحو الاستثناء (أو الخارق للمألوف) في الممارسة العبادية. هذا الانزواء كان يعني أساسا موقف الرفض: رفض الرفض، رفض الآخرين، رفض العالم، رفض السلطة، رفض المال... هنا نتساءل لماذا حفظت لنا كتب الطبقات تراجع هؤلاء واعتبرتهم من " حملة العلم " بل أن هذه الكتب جعلت لهم أحيانا تصنيفا موازيا لطبقات الفقهاء وهو ما نجده مثلا في رياض النفوس حيث تمّ وضع طبقات " لأهل العبادة والنسك" ¹ موازاة لأهل العلم. ويبدو الشرخ واضحا بين الفقهاء أو العلماء والعباد، فهذا ربيع القطان في حديثه عن المدوّنة يقول: " إنها طالما منعتني من رؤية ربّي ... " ويضيف المالكي: " إنّه " أقبل على العبادة وترك دراسة العلم" ². هذا يعكس تراجع العالم أمام العابد (تراجع المعقول أمام اللامعقول وربما تجرّأ العابد على إهانة العالم (الفقيه) كما فعل أبو جعفر القمودي حين دخل عليه ابو بكر بن اللباد حيث: " لم يقبل عليه كما ينبغي أن يقبل على العلماء، فخرج ابن اللباد مغضبا وهو يقول : " عالم عند الله أفضل من سبعين عابد " ³ وأبو جعفر

¹ -انظر مثلا : رياض النفوس، I، 193، 300، 408

² - رياض النفوس، II، 325

³ - ن م، II، 215

القمودي هذا هو الذي قال عنه أبو القاسم محمد كرو: " رجل لم يكن عالما ولا فقيها ولا قاضيا أو أدبيا، بل رجل من عامة الناس ومن أضعفهم مالا وعلمًا ومنزلة اجتماعية، ومع ذلك بلغ في عصره والعصور الموالية أعلى درجات الاحترام والتقدير والإجلال..."¹

هنا نعود إلى تساؤلنا المبدئي حول الظهور الفعلي للمذهب المالكي بأفريقية، إن كنا قد أثبتنا أنه حتى نهاية العهد الاغربي لم توجد مدرسة مالكية مهيمنة على المنطقة وإن كان دور فقهاء المالكية في العهد الفاطمي محدودا أمام سلطة الفاطميين من جهة وأمام السلطة المعنوية للعباد والزهاد من جهة أخرى. لا بدّ من الملاحظة أن الإيجابي في ذلك العهد هو أنه في تلك الفترة لم تكن الهيمنة السياسية والاقتصادية الشيعية متبوعة بهيمنة ثقافية / فكرية / مذهبية بل إنها كانت تلاقي مقاومة مختلفة المستويات لعب فيها العباد والزهاد دورا أهم من الفقهاء لكنها كانت عاملا مهماً في اتساع دائرة المالكية التي ستصبح المذهب المهيمن اثر خروج الفاطميين مباشرة.

الخاتمة

إن "العلم" بالمفهوم العقلاني أو المنطقي في تلك الفترة أصبح "علما رسميا" مركزه المهدية وينتجه علماء الدولة الفاطمية مثل "القاضي النعمان" وفي المقابل وقفت القيروان برجالها محاولة إنتاج خطاب جديد ذات صبغة شعبية وهو خطاب يستجيب للأوضاع الجديدة التي تتميز بذلك التناقض الحاد بين السلطة الجديدة (الشيعية، المشرقية، العربية) والمجتمع المحلي (المالكي، المغربي، البربري).

إن المقاومة التي ولدت عن هذه الوضعية هي التي واكبت النشوء الفعلي للمدرسة المالكية الإفريقية (القيروانية) حيث اندثرت إثرها بقايا المذاهب الأخرى وبرزت على الساحة العلمية أسماء لامعة مثل : عبد الله بن أبي زيد القيرواني (مالك الأصغر) وأبي الحسن القابسي وغيرهما....² ومنذ ذلك الحين يمكن التأكيد دون تردد بأن المذهب المالكي قد أصبح المذهب الغالب على أفريقية بل أصبح المذهب الوحيد المقبول سياسيا واجتماعيا.

1 - أبو القاسم محمد كرو، حصاد العمر، تونس 1998، المجلد IV، القسم الثالث: مدن وأعلام ص121

2 - لمزيد الإثراء نحيل القارئ على بعض المقالات التي كتبها : هادي روجي إدريس - Hadi Roger Idris والمتعلقة بهذه المرحلة من تاريخ المالكية :

- Le crépuscule de l'école malikite kairouanaise (fin du XIè siècle), *les Cahiers de Tunisie*, IV, 16, 1956, pp 494-507.

- Une des phases de la lutte du malikisme contre le Sicisme sous les Zirides (XIè siècle), *les Cahiers de Tunisie*, IV, 16, 1956, pp 508-517

- Deux juristes kairouanais de l'époque Ziride : Ibn Abi Zayd et alqabisi (Xè-XI è siècle), *A.I.E.O.*, XII, Alger, 1954, pp 122-198.